

طه حسين نموذج مشروع الحداثة النهضوي

د. محمد بن ردة العمري

نظر النهضويون إلى التحديث، وأطلقوا دعوات التغيير الاجتماعي من خلال تعميق صلة الإنسان بهويته (تراثه، وتاريخه الحضاري)؛ ليكون منهما عامل تحريك للمجتمع رغبة في تغييره، وفق ما يراه كل تيار، لذا فقد كان المشروع النهضوي العربي في بداياته قد « انتظم مساراً في خطين متوازيين ومتلازمين باتجاه تحقيق النهضة:-

الدعوة لتحرير الواقع، من خلال تحرير الذات الإنسانية من رواسب التخلف والقبول بالسلطة الاستبدادية المطلقة (أيًا كانت).

حركة التنوير: القائمة على فكرة الحرية بشمولها الفكر والواقع؛ للإسهام في صياغة وتحقيق واقع جديد للأمة » [بحث (هل للفكر العربي الحديث فلسفة) لماجد صالح السامري، بمجلة الفكر السياسي، العدد 21، السنة الثامنة شتاء 2005م.]

لذا فقد كان « البحث عن الخيار النهضوي بين التغريب اللاشرطي، والأصالة المشروطة فحوى كل المشادات التي انطوى عليها الصراع بين تيارَي القديم والجديد »
لقد كانت كل أطروحات النهضويين تدور حول مصطلحي « النهضة » و « التنوير »، فالنهضة: تتحقق من خلال إنشاء نظام جديد للتعايش بين الفكر والواقع، فـ « ما دام كل ما حولنا خاضع للتغير والتبدل في صيرورة أبدية، فإن من العيب تثبيت المتغير في عالم الصراع »
[مقولة لغيرا كليت، انظرها في مقال (هوية النقد العربي الحديث) لحنا عبود في مجلة الموقف الأدبي، العدد 423، تموز 2006م.]

والتنوير يكون — « تقديس العقل، والإيمان بأن الثقافة الخالدة إنما هي الثقافة الإنسانية، التي تتخطى حدود الزمان والمكان، وبحيث تتحرر من العادات والتقاليد والرجعية، » [العقل والتنوير في الفكر العربي المعاصر، قضايا ومذاهب وشخصيات، للدكتور عاطف العراقي، ص 14].

ومصطلحا « النهضة » و « التنوير »، من نتائج الحضارة الغربية، عند اصطدامها بتعاليم الكنيسة، وإعلان الثورة على الدين، وعندما جرت هذه القطيعة بين الدولة والدين في الغرب أمكن بناء دولة

أرضية غير سماوية، ومن خلال تراجع المطلق وتقدم النسبي، نجحت الحضارة الغربية في المجالين المادي والتقني، الأمر الذي قابله تراجع للناحية الروحية أمام الديناميكية المادية المتسارعة، مما أدى إلى حصول خلل وتشقق في هيكلية هذه الحضارة. [انظر: بحث (بين الغربية والأسلمة) بيسان للنشر والتوزيع، ص94.]

إذن خرجت النهضة في الغرب على عقيدة الكنيسة، التي كانت ترجع كل تغيير في ظواهر الكون أو في سلوك الإنسان إلى الإله الذي هو مركز كل شيء .. وكونت لها فكرة حديثة حرة عن العالم وعن الحياة ترى من خلالها الإنسانية وحدها مستمتعة بالإجلال والتقدیس [انظر: الحمى الوافدة أو الرجعية والتقدمية، لمحمد علي قطب، ص20.]

وعندما افتتن مفكرو الشرق الإسلامي بتلك الحضارة، عللوا الرجعية في بلادهم بتمسكها بالدين؛ ولذا فيجب - في نظرهم - التخلص منه كما تخلصت أوروبا حتى تضع قدمها على سلم الحضارة. [ينظر: مقال (التنوير وخرافة النخبة) تركي علي الربيعو، المجلة الأسبوعية، صحيفة الجزيرة السعودية. العدد (195)، يوم الثلاثاء 16 شوال 1427هـ]

فالتنوير يقع على الضد من قوى الإلظام التي هي قوى أصولية إسلامية، تقف كحجر عثرة في طريق المتنورين وفي وجه دولة التنوير؛ ولذا فلا غرابة أن يكون « المقصود بالتنوير هو الهجوم على الحركات الإسلامية باعتبارها داعية للإلظام، والقيام بعملية غسل دماغ الثقافة الوطنية من التيارات الإسلامية » [انظر: كتاب (في الثقافة السياسية) لحسن حنفي، مبحث (التنوير والتنوير)].

وعند هؤلاء فشعارات التنوير الخالدة عن الحداثة والمدنية والعصرية، وصفت على النقيض من الأصالة الإسلامية، إذن صياغة التنوير عند النهضويين العرب تمت بالأساس وفقاً للنموذج الأوربي، فقد بقي هذا النموذج مثلاً للقياس وليس للاستئناس.

وقد سارت الحضارة العربية في عصر النهضة ومن خلال تمثلها للنهضة الغربية وفق محاور فكرية متعددة، محاولة قراءة تلك التجربة وتمثل معطياتها فجاء هذا التمثل وفق المحاور التالية:

1- الحداثة:

ويرى أصحاب هذا المحور « أن السبيل إلى النهضة هو الأخذ بأسباب الحضارة الأوروبية الحديثة » أزمة الفكر العربي المعاصر، [د. علي بو ملحم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ص72].

وذلك عن طريق ممارسة العقلانية في التراث، وما « لم نمارس العقلانية في تراثنا، وما لم نفصح عن أصول الاستبداد ومظاهره في تراثنا، فإننا لن ننجح في تأسيس حداثة خاصة، نخرط بها ومن خلالها في الحداثة المعاصرة العالمية » [التراث والحداثة دراسات ومناقشات، د. محمد عبد الجباري، ص17]. إن انجذاب هذا التيار إلى ما هو فكري وثقافي جديد، قاده إلى تبني تيارات غربية الأصل والروح والجوهر، « لقد تمثل المحدثون العرب النهضة الأوربية - التي قد تشكلت وابتدأت قبل ذلك بنحو خمسة قرون من الزمن -، فرأوا أن الواقع العربي الجديد يجب أن يأخذ بما لها من نموذج حضاري متكوّن، فيسيرون على هدى سيره فهي نموذج كامل التكوين علينا الأخذ به، واتباع سننه الفكرية والحضارية » [المشروع النهضوي العربي بين تجديد الوعي الفكري، والتوجيهات الليبرالية، ماجد صالح السامرائي، بحث بمجلة الفكر السياسي، العدد 21].

وأبرز من يمثل هذا المحور طه حسين، والتدقيق، وسأمثل هذا المحور من خلال شخصيته في القادم من البحث.

2- القومية والتحرر:

وينظر أصحاب هذا المحور إلى الأصالة « كونها إبداعاً مستمراً معبراً عن روح الأمة، ومجسداً لعبقريتها التاريخية - بما يفتح الأبواب لتفكير جديد وفكر جديد، ينعكس بدوره على فهم هذا التيار للتراث وقراءته له قراءة جديدة ، وعليه فالقومية هي عنصر الوحدة والبديل عن الدين [دفاع عن ثقافتنا، جمال سلطان، ص14]، وأبرز هؤلاء: ساطع الحصري، وعفلق، وزكي الأرسوزي، وشكيب أرسلان.

3- الماركسية:

ويزدري معتقوها التراث عمومًا، إذ يرون السبيل إلى النهضة هو اعتناق الماركسيّة وتطبيقها،

وتمثلها شبلى الشميل، وسلامة موسى.

وقد جعل هؤلاء من خطاباتهم عن الحرية والتقدم أناشيداً ونصباً للعبادة، وذلك تأثراً بالماركسية التي « ترفع بعض أفراد المجتمع - وهم عصابة الحزب الشيوعي - فوق مستوى الإنسان في القداسة والطاعة، تعيد عبادة الأوثان وتمجد الوثنية كطريقة في الحياة ... تدعي إنها تخلي الطريق إلى حرية الإنسان واستعادة المستوى الإنساني الذي جعل له، وهو ذلك المستوى الذي لا يخضع لسبب أو لآخر إلى ما ينال من كرامته البشرية؛ كعبادته لموجود أو متخيل وهو الله » [تألفت الفكر المادي التاريخي بين النظرية والتطبيق، د. محمد البهي، ص 42.]، وإذا كانت الماركسية بعمومها تقدر بعض أفراد المجتمع وترفعهم عن البقية، فإن أتباعها من النهضويين العرب يقصدون الأمة الغربية، والإنجليز على وجه الخصوص، فهم «أرقى أمة موجودة الآن في العالم، والخلق الإنجليزي يمتاز عن سائر الأخلاق، والإنسان الإنجليزي هو أرقى إنسان من حيث الجسم والعقل والخلق » [اليوم والغد، سلامة موسى، ص 58-63]، وما دام الأمر كذلك، فإنه في نظرهم « إذا كانت الرابطة الشرقية سخافة فإن الرابطة الدينية وقاحة » [السابق، ص 239].

سبق أن ذكرت أن طه حسين يعتبر منظرا للتيار الحدائثي، فهو يمثل توجهات هذا التيار تمثيلاً بارزاً، فقد استحضّر النموذج الغربي كمنطلق للتطور والتقدم، ولم ينحصر النموذج الغربي عنده في الغرب الحديث، بل رجع إلى الأصول الأولى التي شكلت الحضارة الغربية - الحضارة الإغريقية - فأصول الغرب الحديثة، وضعها اليونان حيث ابتكر هؤلاء العلم كمباحث قائمة على منهج عقلائي، وكنظام من المعارف المجردة

إن من المهم جداً لمن يقرأ فكر طه حسين أن يعي تماماً أن طه حسين لا يحصر الصراع في حقل النظرية والفكر النظري، وإنما كان يتبنى النظرية ثم ينقل الصراع، وفاقاً لمفهوماتها، إلى الواقع الاجتماعي - الثقافي

وإذا كانت مناقشات طه حسين تنصب على قضية المنهج في معظم كتاباته؛ فلأنه يعتبر أن « من شأن الثورة المنهجية تجديد العقل وتحريره وليس تجديد وسائل البحث وأدواته فقط » ، وفي الحقيقة أن هذه الأخيرة هي التي نقف دائماً عندها ونتناقش معه حولها. وقد تمثلت منطلقات طه حسين وفق المحاور التالية:

1- الحضارة الأوربية وتمثل فكرها تمثلاً دقيقاً:

فنموذج طه حسين هو الغرب الليبرالي ؛ لذا يرى طه أن الوعي النهضوي في المجتمع العربي لا يتم إلا من خلال التركيز على لحظة محددة في تلك التجربة النهضوية الأوربية، يمكن أن تكون منها نقطة البداية لثقافة جديدة لمجتمع يريد له طه أن يتميز بثقافته.

وعليه « فإن السبيل واضحة بيّنة مستقيمة، ليس فيها عوج ولا التواء، وهي واحدة فذة، ليس لها تعدد، وهي أن نسير سيرة الأوربيين، ونسلك طريقهم؛ لنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرّها، ما يحب فيها وما يكره، ما يحمد منها وما يعاب، ومَن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخدوع » [مستقبل الثقافة في مصر، ص55].

« ويكفي أن تفكر في حياة الفرنسيين أثناء القرن الثامن عشر، فسترى طائفة من الأدباء والفلاسفة والمفكرين، أنكروا حياة العصر الذي كانوا يعيشون فيه، وحملوا الناس من حولهم على إنكارها وطبقوا هذه الأفكار في نفوس الناشئين والشباب الذين لم يتم نضجهم بعد، فأنشأوا جيلاً جديداً هو الذي ألهب نار الثورة... وغير بها حياة فرنسا وأوربة وأجزاء أخرى كبيرة من العالم » [خصام ونقد، ص 633]

لقد كان طه حسين « يطمح كباقي فلاسفة التنوير الغربيين، أن يوحد الروح الإغريقية والروح الغربية الشرقية، التي يجمعها بأوروبا حوض البحر الأبيض المتوسط ». يقول: « أن العقل المصري منذ عصوره الأولى عقل أن تأثر بشيء فإنما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط ». [مستقبل الثقافة في مصر، ص 18].

ومن هنا فهو يجعل العقل المصري (وهو النموذج العربي) أوروبياً، ولكن عبر نموذجها الأولى المتمثل في حضارة اليونان التي قام العقل المصري نفسه بتغذيتها بالعلوم والفنون.

2- العقلانية الموجهة:

وقد بدت معالم هذه العقلانية تظهر حين صرح أنه سيسلك مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة، فيما يتناولون من العلم والفلسفة - يقول: « أريد أن أصطنع في الأدب، هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثته ديكرت للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر، والناس جميعاً يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن ينجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن ما قيل خلواً تاماً » [في الشعر الجاهلي، طه حسين، ص 35].

والطريق إلى العقلانية يتم عن طريق التدرج في إلغاء المسلمات، لهذا كان لا بد من إعادة بناء الواقع؛ للارتقاء به إلى مستوى نظام العقل المتطابق مع الوعي الجديد للتاريخ الجديد، الذي يريد تأسيس بنائه المفهومي؛ لتخطي الحالة الشعرية الغريزية الخطابية الكهنوتية باتجاه العقلانية الديمقراطية، يقول: « إن الحياة اليونانية التي خضعت للشعر في أول أمرها ثم خضعت بعد ذلك للعقل كانت أخصب فترة عرفها الإنسان القديم » [قادة الفكر، ص 193].

وأستطيع هنا أن أقول إن طه حسين اتخذ في تأسيسه لمشروع إعادة نظام العقل العربي وصولاً
لوعي جديد للتاريخ الجديد طريقين: -

*أولاً: الشك:

وقد لاحظت معالم نزعة الشك عند طه حسين في الأحاديث، قبل أن تتبلور في كتابه (الشعر
الجاهلي)، فأكد ابتداءً على ضرورة تمثيل الشاعر لعصره، إذ سوف تتطور هذه الفكرة بشكل بارز
في كتاباته القادمة حول الشعر الجاهلي والمتنبي، ولقد ساقته فكرة تمثيل الشاعر لعصره وبيئته إلى
نتيجة مفادها: أن صحة الشعر رهينة بانعكاس البيئة والشخصية فيه؛ لذا راح ينقب عن مبررات
الشعر الذي شك في وجوده.

ويمكن أن نبرهن هذه الفكرة عند طه حسين من خلال منهجه في:

أ- الشك في الشعر الجاهلي:

والفكرة التي يريد أن يصل إليها هي تفكيك الأصول المعرفية؛ حتى يصل للبداية، وهذه من
أخص خصوصيات الديكارتية التي اعتمد عليها طه حسين، إذ هي تهدف إلى « إعادة الوعي
البشري بعد تنظيفه من مكتسباته المعرفية والتاريخية إلى نقطة الصفر »

إن أصالة المشروع التنويري لطه حسين تتمثل في انكبابه على الحفر في الجذور، ومواجهة
الذهن العربي منذ تخلقه أي منذ اللحظة التي اتفق على أنها بداية تشكل خصائص الثقافة العربية،
وهي الشعر والنثر الجاهليين.

فالشعر الجاهلي من نظر طه حسين لا يمثل فترة تاريخية وكما قال: « فالتماس الحياة العربية
الجاهلية في القرآن، أنفع وأجدى من التماسها في الشعر العقيم الذي يسمونه الشعر الجاهلي! أرأيت
أن هذا النحو من البحث يغير كل التغيير ما تعودنا أن نعرف من أمر الجاهليين » [في الشعر الجاهلي،
ص35.]

من هنا بدأ يلغي أصلاً بنت عليه الأجيال معرفتها ليصل كما يقول إلى أن : « الشعر الذي رأينا
أنه لا يمثل الحياة الدينية والعقلية للعرب الجاهليين، يبعد كل البعد عن أن يمثل اللغة العربية في العصر
الذي يزعم الرواة أنه قيل فيه »

ب- الشك في أصالة اللغة العربية الفصحى؛

لأن « القبائل بعد الإسلام قد اتخذت للأدب لغة غير لغتها، وتقيدت في الأدب بقيود لم تكن تنقيد بها لو كتب أو شعرت في لغتها الخاصة، أي أن الإسلام، قد فرض على العرب جميعاً لغة عامة هي لغة قريش » [في الشعر الجاهلي، ص47].

والملاحظ هنا أن فكرة الشك عند طه حسين متسلسلة؛ بهدف الوصول إلى ما تقتضيه هذه الفكرة وتستلزمه من النقض والهدم و التفكيك. فنراه قد نظر إلى الكل المتناسك ثم بدأ يفكك عناصره من الشعر إلى اللغة ليصل إلى « أن هذا الشعر الجاهلي لا يمثل اللغة الجاهلية »

ج- الشك في القرآن الكريم:

« فالقرآن والتوراة لا يكفیان لإثبات وجود إبراهيم وإسماعيل التاريخي في مكة، فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأه العرب المستعربة » [الشعر الجاهلي 38]

والقراءات السبع المجمع عليها لدى العلماء لم تنزل من عند الله بل قرأها العرب حسبما استطاعت قراءتها، لا كما أوحى الله بها إلى نبيه ﷺ .

و « القرآن الذي تلي بلغة واحدة ولهجة واحدة هي لغة قريش ولهجتها، لم يكد يتناولها القراء من القبائل المختلفة حتى كثرت قراءاته وتعددت اللهجات فيه وتباينت تبايناً كثيراً ... نشير إلى اختلاف آخر في القراءات تقتضيه ضرورة اختلاف اللهجات بين قبائل العرب التي لم تستطع أن تغير حناجرها وألسنتها وشفاهها لتقرأ القرآن كما كان يتلوه النبي وعشيرته من قريش، فقرأته كما كانت تتكلم .. » [الشعر الجاهلي، ص36].

ويكفي هنا أن أشير إلى أن شك طه حسين في إثبات الوجود التاريخي لإسماعيل وإبراهيم - عليهما السلام- يفضي في النهاية كما يقول محمد البهي إلى « أن القرآن -وبعبارة أخرى- الإسلام دين محلي، لا عالمي، قيمته وخطره في هذه المحلية وحدها، قال به صاحبه متأثراً بحياته التي عاشها وعاش فيها، ولذلك يعبر تعبيراً صادقاً عن هذه الحياة، أما أنه يمثل غير الحياة العربية، أو يرسم هدفاً عاماً للإنسانية في ذاتها، فليس ذلك بحق... فالقرآن مؤلف، ومؤلفه نبيه، ومنهج دراسة الحياة الجاهلية للعرب يدور بين الشعر الجاهلي والقرآن وكلاهما للإنسان » [الشعر الجاهلي، ص36]

وللحديث بقية بإذن الله.....